تعالى على عبده بهذا الاسم حصل له الفخر ، والا فما يرد اله من اسمائه تعالى. ه

وأما الشيخ الامير فاستغنى باذكره في حاشيته على عبد السلام شارح الجوهرة فقد قال عند قوله « الانين » ينبغي أن يقال آه لانه ورد اسمالله دون آخ لما قيل من انه من اسماء الشيطان. ونقل الباجوري قوله هذا ولكنه لم يذكر صيغة التمريض في كون آخ من اسماء الشيطان. وقول المناوي هو الصحيح لانه أعلمهم بالحديث والآثار وبالتصوف على انهم كلهم ذكروا كلمة «آه» بالمد ولم يذكر أحد منهم قولا ما في لفظة « اه » التي يدعيها المعترض فسقط كل ما قاله ولم يفده قول أحد منهم بل كلهم حجة عليه لا له . فيا ليت شعري هل يرجع ذلك الشاذلي المعترض وأمثاله الى الحق بعد ما تبين له أن كل ما استند اليه أهل طريقته في ذلك باطل عملا بعنوان اعترافه (الرجوع الى الحق فضيلة) الا اذا وافق الهوى التقليدي وان كان كذبا على الله ورسوله ومخالفا لما كان عليه السلف الصالح ومحققو الخلف في ذلك ؟.

﴿ الرحلة السورية الثانية ﴾

٤

طرابلس والقلمون

ما حزنني من سوء حال بلاد سورية الاجتماعية والادبية شيء كما حزنني حال طرابلس والقلمون حيث نشأت وترعرعت فقد كانت طرابلس خير المدن السورية في العلوم الشرعية والادبية ، والعيشة الراضية الهنية ، كما كانت القلمون خير البلاد الصغيرة في ذلك ، أو « سيدة القرى والمزارع » كما وصفت في السجل الاعظم (در كنار) لبلاد الدولة العثمانية في الباب العالي كما روي لنا وذلك ان جميع أهلها كانوا سادة شرفاء ، واتقياء نجباء ، قد ولدت ولله الحمد فيها ، ونشأت في بيت الكرم والمجد لا تبل منها ، فكنت من أول العهد بالتمييز أرى العلماء والادباء والحكام والوجهاء تغشى دارنا ، وتعشو الى ضوء ناره بل كنت أرى فيها الصيوف من بلاد المسلمين على اختلاف ملليهم ومذاهبهم ، وكان مسجدها عامرا دائما بإقامة شعائر العبادة وقراءة

دروس العلم والوعظ ، وقد عشت ما عشت فيها ولم أر أحدا ارتكب فاحشة أو شرب مسكرا أو أتى منكرا الا ما كان ينسب الى أفراد قلائل من ارتكاب سرقة الفاكهة أو الزيتون واللايمون وما كان يقع بين بعض المتخاصمين والمتنازعين من التضارب بالعصي أحيانا وبالمدى نادرا ، وقلما رأيت شيئا من ذلك بعيني . وأني قد شببت فيها وأنا أعتقد أن الذين يقترفون كبائر الاثم والفواحش في الدنيا أفذاذ قليل عددهم في كل مكان وأكثرهم في المدن أو الوادي ، لذلك كنت أجتنب مغاصرة أكثر الناس في طرابلس عند ما كنت أطلب العلم فيها على ما ذكرت من تفضلا على قبرها ، حتى اني الى اليوم لا أعرف جميع أسماء الذين جمعني معهم المقام الطوال في المدرسة . وكانت مدارس العلم يومئذ عامرة وطلابه كثيرين والمدرسة كانت دور أهل العلم والادب أندية وسماوا تكثر فيها المطارحات العلمية والمساجلات الادبية ولم تكن الخمر معروفة في شيء من ملاهيها العامة (القهاوي) ولا الرقص ، وكل ما كنت أعلمه في هذا أن في حارة النصارى ملهى في خان اسمه الزهرية يشربون فيه الخمر ويختلف اليه بعض أهل الدعارة من المسلمين ، ولكنني لم أر في أثناء اقامتي فيها الطلاب العلم من السكارى الا عبدا أسود وشابا رطلياً من فقراء السوقة يبيع الحمص المملح والمكس بالسكر وانما نسمع أحيانا بعض أخبار القليل من المكرين عليهم والقادحين فيهم اذ يغلب عليهم التستر ويندر فيهم الهتك ، كاجتماع بعض أهل الدعارة في مجالسهم الخاصة في بيوتهم على مائدة الخمر أو شربها على مائدة الطعام ، وانما كان يعمل هذا من المسلمين أكثر الموظفين من الترك حتى بعض قضاة الشرع . وكان هؤلاء الموظفون يحرصون على اغواء وجهاء المسلمين الذين يعاشرونهم باغرائهم بالشرب معهم كدأب أهل السكر في كل مكان ، وقل من كان يصاحبهم منهم من قريب أو غريب ولو قبول الكأس من أيديهم مرة واحدة ، ومن عارة ذلك ، [illegible] المتصرفين فقد سألنا الذين [illegible] سكر علني حتى اذا في شهر [illegible] الا كثيرة كثيرة فقلنا له تلك شنشنة [illegible] سيدنا والحق أن كل مسكر خمر يحرم قليله وكثيره كما ثبت في [illegible] والخمر والطبر والطبر

واذ كنت أكتب مثل هذا الاعتبار به وليكون تاريخا تعرف بمثله أسباب التطور الاجتماعي في البلاد فانني اذكر واقعة في هذا الباب هي أكبر ما كان يتحدث به الناس في مدينتنا (طرابلس الشام) ويفخرون بها. وهي بين مدحت باشا الوزير الشهير ودرويش افندي الشنبور

كان درويش افندي هذا رجل طرابلس الكبير بل رجل سورية الممتاز في عصره بالعلم بالقوانين وحسن الادارة والتصرف في حل المشكلات، حتى ان أمور ادارة لواء طرابلس كانت بيده يتصرف فيها كما يشاء، وهو عضو في مجلس الادارة رأيه فيه بحكم القانون كرأي غيره من الاعضاء، فكان أصحاب الحاجات يولون وجوههم شطر داره دون أمثاله من الاعضاء بل دون الرؤساء من المتصرف التركي المولى من نظارة الداخلية الى من دونه من رؤساء الادارة وكذا رؤساء الجند فيما يقيدون فيه بالادارة كأخذ العسكر بنظام القرعة المعروف فلم يكونوا يستطيعون أخذ أحد الا برأيه — لذلك كان له حساد كثيرون فلما جاء مدحت باشا والي سورية كثر السعاة بدرويش افندي الشنبور لديه الذين يرمونه بالاستبداد بأعمال الحكومة وكونه لم يترك لاحد من رجال الدولة اسما ولا عملا في لواء طرابلس وانه هو نفسه لا يمكنه أن يكون له اسم سمي ولا قدر علي في ذلك اللواء الا باخراجه من مجلس الادارة وجعله جليس بيته، وقد أثرت هذه السعاية في نفسه، فلما جاء طرابلس في دورة التفتيش المعتادة كان استقباله لدرويش افندي استقبال المرتاب المختبر فلما سمع كلامه أعجب الخلوة به فسمع منه من الانباء والآراء ما أكبره في عينه، وأحله في أعلى مكان من الثقة به، والكلام مظهر العلم والعقل والرأي (فلما كلمه قال أنك اليوم لدينا مكين أمين) ولم يكن يستطيع مفارقته الا وقت النوم، وكان الوزير مبتلى بشرب الخمر كما كثر رجال الدولة وكان درويش افندي لا يشرب بها كسائر وجهاء طرابلس ولا سيما أصحاب الزي العلمي أمثاله فاجتهد مدحت باشا في حمله على الشرب لتطيب له معاشرته ولا يرى نفسه صغيرا أو حقيرا في عينه وعين نفسه بارتكابه لهذا المنكر مع من ينكره في نفسه لتحريمه وقد كان مدحت باشا مسلما محترما لدينه كما يقال ولكن السكر بلاء فلما يستطيع تركه من ابتلي به — عرض لدرويش افندي أولا فتباله وأعرض كأنه لم يفهم مراده،

فكاد له مكيدة سلم منها بحسن بادرته ، وقوة ارادته : ذلك أنهما كانا في متنزه من متنزهات ضواحي المدينة اسمه (بركة البداوي) فطلب الوزير الخمرة فأخذ لنفسه كأسا وناول درويش افندي كأسا أخرى وقال له نشرب على اسم مولانا السلطان الاعظم فأخذ الكأس درويش افندي وقال على البداهة : كأس من يد افندينا مدحت باشا باسم مولانا السلطان الاعظم أمير المؤمنين لاينبغي أن تصب في الجوف ونخالط القذر بل مكانها الرأس ، وصب الكأس على عمامته البيضاء . فاعجب مدحت باشا بهذه البداهة والكياسة . وزاده هذا الثبات كرامة عنده ومكانة في نفسه

هذه الحالة التي كانت عليها طرابلس الى عهد طلبي للعلم فيها وهجرتي منها هي التي خامرت آلامي لما رأيت هذه المرة مارأيت من سوء حالها ، وسريان عدوى المجاهرة بالتهتك فيها ، وقد بدأ ذلك فيها في أوائل العهد بالحكومة الدستورية الاتحادية ثم كان لمقاصد الحرب ثم للاحتلال الاجنبي تأثير بعد تأثير في استشراء فساده كما بيناه في النبذة الثالثة من هذه الرحلة (ج ٩ م ٢١) حتى ان طرابلس صارت دون بيروت ودمشق في الحالة العلمية والادبية الاسلامية فقد خلت من تلك الحلقات الواسعة من طلاب العلم ومن تلك المحافل والسمار التي كانت آهلة بأهل الهيئة والوقار من العلماء والوجهاء من الطبقات المختلفة الذين كانت آراؤهم تضطر الغرباء من حكامهم وغيرهم الى احترامهم دع أهل البلد الذين هم كبراؤه . وكذلك كان شأن شيوخ أهل يفتنا في القلمون بل لم أر مجلس وقار في مكان ما مثل المجالس التي كان يحضرها كبير أسرتنا السيد الشيخ أحمد عمي والدي فقد كان أوجه الوجهاء من علماء طرابلس ورجال الحكومة وغيرهم يجلونه لما كان عليه من الجد والوقار والتقوى حتى إنه لم يكن أحد يشذ في جلوسه ولا في ضحكه ومزاحه في حضرته بل يلزمون الاعتدال والادب الشرعي وقد اتهم رجل صالح من طرابلس بفاحشة أو مقدماتها وكان ممن يترددون على القلمون مع بعض العلماء فلم يتجرأ بعدها أن يتراءى امامه طول حياته ، وماذا أقول عن صاحب تلك الشيبة الرائعة الذي قال فيه نقادة المعاصرين الشيخ عبد الفتاح الزعبي نقيب أشراف طرابلس وخطيب جامعها الكبير الى اليوم: آخر من أدركنا من الصديقين عمي الشيخ أحمد . وأنا لم أكن هنالك استطيع تمهد النظر في وجه

أحد منهم بالفسق ولا السكوت على منكر منذ كنت غلاما أمرد وقد شذ في حديثه معي تاجر في طرابلس بقول لا يعد منكرا شرعا اذا حسنت فيه النية تركت الشراء منه والنظر الى دكانه بل المرور امامها مادام فيها

نعم انني كنت أول من انتقد من المسلمين ما كان عند الوجهاء من التكلف في الاناء والسلام والقعود والقيام وأول من ترك عادة الجلوس على الركب في بدء المجلوس معهم وان فعل ذلك بعض كبار السن والقدر لاجلي ولكنني أقول الآن ان مجالسهم كانت خيرا من مجالس اكثر أولادهم وأحفادهم الذين تركوا غير ذلك من آدابهم العالية ، لا المتكلف منها فقط مفتونين بزخرف حرية الفسق الذي يخشى أن يضيع عليهم دنياهم ودينهم فيكونوا من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا

اصيبت طرابلس بالقمم من العلماء والفضلاء والزعماء فلا خلف فيها في العلم والرشد للشيخ محمود نشابه والشيخ عبد الغني الرافعي والشيخ عبد الرزاق الرافعي والشيخ عبدالله الصفدي ودرويش افندي الشنبور والمفتي مصطفى أفندي كرامي الذين أدركناهم في شيخوختهم ، ولا للشيخ حسين الجسر والشيخ عبد الله البركة والشيخ نجيب الحامدي والشيخ محمد كامل الرافعي ومحمود افندي المغربي والمفتي رشيد افندي كرامي والشيخ خليل صادق الذين أدركناهم في كهولتهم

وانما بقي أفراد من الطبقة التي قبل طبقتنا أوسعهم علما وفهما وافادة الشيخ محمد ابراهيم الحسيني وقد جهلت مدينته قيمته فلا ينتفع به الا أفراد قليلون من بقايا الطلاب ، ومنهم الشيخ محيي الدين الخياط والشيخ عبد اللطيف نشابه وأفراد آخرون من طبقتنا ورفاقنا في الطلب وأكثر هؤلاء وأولئك قد تركوا الدرس والتدريس واجتنبوا الكتابة والتصنيف ، ومنهم من يشتغل بأمر الدنيا من تجارة وزراعة لكساد بضاعة العلم ولم أر في هذه الزورة لطرابلس أحدا من رفاقي لا يزال مغرما بالمطالعة والكتابة الا الشيخ محمد رحيم والشيخ عبد المجيد افندي المغربي ، وليس لاحد منهما ولي في عمله ولا ظهير

وأما القلمون فلم يبق فيها أولو بقية يستفيد الناس منهم الا عمي أبو عبد الرحمن عاصم فهو يقرأ دروسا في مسجدنا في بعض الاحيان لمن عساه يوجد فيه ولكنه في عامة

أوقاته ، متزل فالناس لا يكاد أحد يراه الا في صلاة الجماعة وقد انقرض ثلثا أهل القرية وحال الباقين شر مما كانت عليه ؛ وقد كنت قبل الهجرة الى مصر أقرأ لهم التفسير ونهاية المحتاج في فقه الشافعية والزواجر وغير ذلك من كتب التوحيد المواعظ والرقائق . وبلغني أنه وجد فيهم رجل يتجرأ على المجاهرة بالفواحش وارتكاب منكرات السلب والنهب يستعين على ذلك برشوة الحكام ، وأما طرابلس فقد صار الكثيرون فيها يجاهرون بذلك ومنهم من يدعو الاجانب الى داره ويقدم لهم الخمور فيها ولكن تيقظ بعضهم لتدارك الخطر كما بيناه في البندة الثالثة التي قبل هذا من الرحلة ، فليحفظ الناس هذا وليتظروا عاقبة هذا التغيير فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ونسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويجعلهم خيرا مما كان عليه سلفهم ويغير ما بهم الى خير منه

تصحيح غلط في الجزء الاول

نبهنا في ص١٠٣ الى حذف جملة من آية وقع في فاتحة المنار وقلنا ان الاقتباس لا يشترط فيه ايراد الآيات تامة وان منه آيات في تلك الفاتحة من مواضع مختلفة لم يفصل بينها ، وعطف على محذوف يعرف بالقرينة . ونزيد هنا أن منه حذف في السطر ١٦ من ص ٨ بعد قوله تعالى (ولا ذمة) وهو تتمة الآية الثامنة من سورة التوبة الى قوله (ولا ذمة) قبل فاصلة الآية العاشرة : وكنا وضعنا في هذا الموضع نقطا لتدل على الحذف فتركت في الطبع سهوا . وقد اضطررنا الى تنقيح تلك الفاتحة والحذف منها اضطرارا ترتب عليه ماذكر

ووقع في السطر ١٦ ص ١٠ ـ يونس ١٠ : ٢٨ ـ وصوابه (الانعام ٦ : ٢٢) وسببه في الاصل أن آية يونس سقطت من الطبع وبقي عددها وحذف عدد آية سورة الانعام فصارت آيتها بعدد عدد سورة يونس ويكتفى الآن بتغيير الرقم . وفي س ١١ ص ١٣ (ويوم ـ وصوابه ثم يوم) وفي س ٢٦ ص ١٣ أيضا تقديم عليم على حكيم في الجملة القرآنية وتفسيرها والصواب عكسه (حكيم عليم) وهذا سهو منا نسأل الله أن لا يؤاخذنا به